

سيرة عُمَر فاخوري وأبرز منجزاته[١]

(١٨٩٥-١٩٤٦)

مولده ونشأته

هو عُمَر بن عبد الرحمن بن علي الفاخوري[٢]. وُلد في بيروت يوم الثلاثاء في الخامس عشر من شهر أيلول عام ١٨٩٥ (٢٦ ربيع الأوّل عام ١٣١٣ هـ)، في حي آل يموت من أحياء البسطة، وبمحلّة الشيخ رسلان، حيث مبنى البلديّة حاليًّا. وفي تعيين تاريخ مولده كتبَ عمر في مذكّراته عام ١٩١٧ يقول: "عشرون عامًا وعامان!...[٣] نصف عمري، وحياتي خلالها قاحلة..."[٤].

تلقّى أبوه عبد الرحمن مبادئ القراءة والكتابة في أحد الكتاتيب بحيّ البسطة. وما إنْ حفظ القرآن في تعليمه الابتدائيّ حتّى انصرف إلى العمل التجاريّ، يبيع الخرضوات والعقاقير بالجملة والمفرّق، في سوق العطّارين المعروف اليوم بسوق أياس. وكان والدُ عُمَر حَسَنَ المعشر، ميّالًا إلى المرح والفكاهة[٥]، قنوعًا يكتفي بربح "الفْراغَة" إنْ تعذّر الكسب، فباع الأصناف "الفقيرة" برأسمالها[٦].

أمّا والدته فعائشة ابنة محمد تعباني، من سكّان بيروت. وآل تعباني فرع من أسرة الحوت البيروتيّة. وذكر لنا وجيه فاخوري، شقيق المؤلِّف، أنّ أمّه لم تتلقَّ مبادئ القراءة والكتابة، إلّا أنّها فُطِرَتْ على ذكاء يرفده روحٌ مرِحٌ، وقد ورث عمر بعض ما فُطِرَتْ عليه.

---

[١] هذه السيرة مأخوذة من كتاب الدكتور أمين ألبرت الرّيحاني **قلمٌ يَفكُّ الرَّصْدَ أو عمر فاخوري، سيرته وأدبه**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ؛ القاهرة، دار الكتاب المصريّ، ١٩٧٧، ص ٩-٥٦. لكن، وتوخيًّا للاختصار، تمّ حذف بعض التفاصيل. وقد أُشيرَ إلى المواضع التي تمّ الحذف فيها بالرمز التالي: [...]. يُشار إلى أنّ الحواشي هي من وضع مؤلِّف الكتاب، باستثناء ما ورد فيها بين معكوفين فهي من وضعنا.

[٢] وليس ابن عبد الرحمن بن الشيخ عبد الباسط الفاخوري كما ذَكَرَ خطأً عزيز خوري في رسالته الجامعيّة "عمر فاخوري حياته وآثاره"، الجامعة السوريّة ،عام ١٩٥٥، ص ٤؛ وكما ذكرت خطأً أيضًا الآنسة حياة كسّاب في كتابها "عمر فاخوري الأديب الثائر" الصادر في طرابلس ١٩٦٧، ص ١٢، وكما أوردت ذلك أيضًا السيّدة وداد سكاكيني في كتابها "عمر فاخوري أديب الابداع والجماهير" الصادر في القاهرة ١٩٧٠، ص ٦، ضمن سلسلة أعلام العرب. فقد ذكر لي الأستاذ وجيه فاخوري شقيق عمر، أنّ جدّهم لوالدهم هو علي الفاخوري وليس عبد الباسط الفاخوري الذي، وإنْ كان من الأسرة نفسها، لا تربطه بعائلة عمر صلة نسب مباشرة.

[٣] تاريخ مولده عام ١٨٩٥ وليس عام ١٨٩٦ كما ذكر رئيف خوري في مجلّة الطريق، ٥:٩، و١٠،١ (١٩٤٦). وربّما كان مصدر الخطإ اعتبار تاريخ وفاته (١٩٤٦) مطابقًا لمرور خمسين سنة على مولده. والصحيح أنّه تُوفّي عن إحدى وخمسين سنة أي أنّه وُلِدَ عام ١٨٩٥ لا ١٨٩٦.

[٤] مجلّة الثقافة الوطنيّة، العددان ٤-٥، ص ٣٠ (تمّوز-آب ١٩٥٦).

[٥] من مقابلة مع الأستاذ وجيه فاخوري في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩.

[٦] فاخوري، عمر، "أديب في السوق"، دار المكشوف، مطابع الكشّاف، بيروت، ١٩٤٤، ص ١٤٦.



نشأ عمر في منزل حافَظَ أهلوه على الشعائر الدينيّة، إذ والداه من أهل التقى، لا يخلّان في أداء الفرائض لا سيّما الصلاة والصوم. ناهيك أنّ أُسَرَ الفاخوري والتعباني والحوت تضمّ بين أفرادها عددًا من شيوخ الدين.

كان عمر بكر والديه. وله شقيقان هما وجيه ومواهب. أمّا وجيه فدرس الحقوق وزاول المحاماة ودخل القضاء، ثمّ عاد إلى المحاماة. وأمّا مواهب فانصرف إلى دراسة الرياضيّات، وعلّمها، وله فيها مؤلّفات مدرسيّة. والشقيقان يتقنان الفرنسيّة، فضلًا عن العربيّة.

تلقّى عمر مبادئ القراءة والكتابة في كُتّاب الشيخ عيسى قاسم المعروف بمدرسة "المعلّم عيسى" قرب الجامع العمريّ الكبير. وكثيرًا ما كان يلعب في الأزقّة مع سائر الصبية في طريق ذهابه وإيابه، بين البيت والمدرسة. فأحياء بيروت الضيّقة القديمة كانت ملاعب طفولته. ومدرسة الشيخ عيسى، كسائر كَتاتيب ذلك العصر، تختم علومها بحفظ القرآن، بعد الوقوف على مبادئ الحساب الأوّليّة.

الكلّيّة العثمانيّة

ويبدو أنّ الوالد كان ينوي نقل عمر إلى حانوته ليساعده في التجارة، فيتمرّس بها منذ الصغر. غير أنّ ميل ولده كان نحو الاستزادة من العلم [...]. وكان أن أرسله أبوه، بحدود عام ١٩٠٦، إلى مدرسة الشيخ أحمد عبّاس الأزهريّ[١] في محلّة زقاق البلاط، وهي الكلّيّة العثمانيّة التي عُرِفَتْ في ما بعد بالكلّيّة الإسلاميّة حين انتقلت إلى برج أبي حيدر نحو عام ١٩١٢. من أساتذة عمر في تلك الكلّيّة: الشيخ مصطفى الغلاييني[٢]، مدرِّس اللغة العربيّة، والدكتور بشير القصّار[٣]، وبشير القضماني[٤]، ويوسف حرفوش[٥]، وصلاح الدين الرفاعي[٦]. كان الاهتمام بتدريس اللغات الأَجنبيّة ضئيلًا. فلم تكن اللغتان الفرنسيّة والتركيّة بالمستوى الذي يؤهِّل الطالب للاستفادة من آدابهما[٧] على الرغم من أن العناية بالفرنسيّة كانت تقارب أحيانًا العناية بالعربيّة[٨]. غير أنّ اهتمام عمر بالترجمة، منذ ذلك العهد المُبكِر، دفعه إلى مزيد من تحصيل اللغة الفرنسيّة. وكثيرًا ما كان يترجم القصص البوليسيّة والروايات لتكون مواضيع مسرحيّات تُمَثَّل في المدرسة. وكان يطبع هذه الروايات صاحب المكتبة الأهليّة في بيروت محمّد جمال[٩]. أمّا الخطابة فكانت مجالًا رحبًا يتبارى فيه

---

[١](١٢٧٠-١٣٤٥هـ/ ١٨٥٤-١٩٢٧م) هو تلميذ عمر الأنسي والشيخ محمّد عبده والشيخ يوسف الأسير وخرّيج الأزهر، ولد وتوفّي في بيروت. من مؤلّفاته: "تاريخ آداب اللغة العربيّة" و "رواية السباق". (كحّالة، ١ : ٢٥٩).

[٢](١٣٠٣؟- ١٣٦٤هـ/ ١٨٨٦؟-١٩٤٥م) مصطفى محمّد سليم الغلاييني. وُلِدَ في بيروت. تعلّم في الجامع الأزهر في مصر. عاد إلى بيروت وأصدر مجلّة النبراس وانتسب إلى حزب الاتّحاد والترقّي. انضمّ إلى حزب الائتلاف ثمّ حزب الإصلاح. رئيس المجلس الإسلاميّ في بيروت. قاضٍ شرعيّ. عضو المجمع العلميّ العربيّ بدمشق. توفّي في بيروت في ١٧ شباط [١٩٤٥]. من مؤلّفاته: "الإسلام روح المدنيّة أو الدين الإسلاميّ واللورد كرومر"، "جامع الدروس العربيّة"، "نظرات في كتاب السُّفور والحجاب" المنسوب لنظيرة زين الدين، "نظرات في اللغة والأدب"، وديوان شعر. (كحّالة، ١٢: ٢٧٧).

[٣](...- ١٣٥٣هـ/ ...-١٩٣٤م) طبيب ومعلّم. وُلِدَ ببيروت، وتعلّم الطبّ في الجامعة الأميركيّة، وتولّى إدارة الكلّيّة الإسلاميّة في عهد صاحبها أحمد عبّاس الأزهري. تولّى التدريس والتفتيش في مدارس المقاصد إلى أن توفّيّ ببيروت. من آثاره: "موجز التاريخ العامّ"، و"أوّليّات في الحساب". (كحّالة، ٣ : ٤٧).

[٤]لم أعثر على ترجمة لحياته.

[٥](... — ١٣٣٥هـ/ ... — ١٩١٧م) من رجال التربية والتعليم. أُرسِلَ إلى فرنسا مع بعض المنكوبين في حوادث سنة ١٨٦٠ للدراسة في فرساي. درّس في كلّيّة الآباء اليسوعيّين في بيروت. من آثاره: "المراسلة التجاريّة في اللغتين العربيّة والفرنساويّة"، و"المنتخبات العامّيّة في اللغة العربيّة". (كحّالة، ١٣: ٢٨٨).

[٦]لم أعثر على ترجمة لحياته.

[٧]خوري، رئيف، "عمر فاخوري في خمسين سنة"، مجلّة الطريق، ٥: ٩ و١٠، ٢.

[٨]من مقابلة مع وجيه فاخوري في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩.

[٩]المرجع نفسه.

الطلّاب ويعملون من خلاله على ترسيخ ملكتهم العربيّة. وبالإضافة إلى هذا النشاط الثقافيّ في الكلّيّة العثمانيّة، الذي كان عمر من أبرز المشتركين فيه ترجمة وخطابة، شغف الفتى بمطالعة الكتب. فكان يختلس الخطى إلى الكتبيّ توفيق كبّوش، وهو تحت درج من الأدراج ليبتاع منه الكتب الحاملة سِيَر أبطال الأساطير العربيّة كسيرة عنترة، والملك سيف، والمهلهل. وإذا خاف سطوة جده أخبأ كتبه على سطح البيت ليتمكّن من التسلّل إليها ليلًا فيقرأها باطمئنان بعد أن يرقد أهله. ولَكَمْ أحرق جدّه تلك الكتب ليردّ حفيده إلى "الطريق القويم"، ولكن دون جدوى[١].

أمّا رفاق عُمَر في الكلّيّة العثمانيّة، فمنهم الشهداء عُمَر حمد[٢]، وعبد الغني العريسي[٣]، والأخوان محمّد[٤] ومحمود المحمصاني[٥]. وكان هؤلاء مع عُمر من أكثر الطّلاب حماسةً وطنيّةً. غير أنّ العُمَرَين جمعتهما موهبة أدبيّة مُبْكِرة: عُمر حمد ينظم القصائد الوطنيّة، وعُمر فاخوري يفكِّر بوضع كتاب عن اليقظة العربيّة ووقوف العرب بوجه الأتراك[٦]. وإلى جانب هذا النفر الذي شغلته الهموم السياسيّة، صادق عُمر عددًا من سائر زملائه الذين شكّلو معًا حلقة شبه أدبيّة، وأصدروا مجلّة مدرسيّة تُدعى "التلميذ"، وأخرى تُدعى "الزهرة"[٧]. ومن هؤلاء الأصدقاء معروف الأرناؤوط، وبشير النقّاش، وعُمر الزعنّي[٨].

في ذلك العهد، أي بين ١٩٠٦ و١٩١٣ كان عُمر، وهو الطالب النشيط في الكلّيّة العثمانيّة، يراقب الأحداث السياسيّة من بعيد. شهد بداية الصراع بين العرب والأتراك[٩]. كما شهد ردّات الفعل الناتجة عن هذا الصراع. ويتّضح موقف الكلّيّة العثمانيّة من تلك الأحداث بأن استُبْدِلَ اسمها باسم الكلّيّة الإسلاميّة. فالشيخ أحمد عبّاس من خرّيجي الأزهر، لا يَلقى حرجًا في أن يتنازل عن عثمانيّته لإسلامه. وهو بذلك يعزّز عروبته المحافِظة على الإسلام.

---

[١] خورى، رئيف، "عمر فاخوري في خمسين سنة" مجلة الطريق، ٥: ٩ و١٠، ٢.

[٢] (١٣١١- ١٣٣٤هـ/ ١٨٩٣- ١٩١٦م) عُمر بن مصطفى حمد. درس في الكلّيّة الإسلاميّة. نظم الشعر باكرًا. علَّم في الكلّيّة نفسها، وحَرَّرَ في بعض الصحف المحليّة. فرّ إلى البادية مع رفاق له هربًا من جمال باشا. لكنّه اعتُقل وأعدِم شنقًا في بيروت. جُمِعَ شعره ونُشِرَ في ديوان بعد وفاته. (الجنديّ، أدهم، "شهداء الحرب العالميّة الكبرى"، مطبعة العروبة، دمشق، ١٩٦٠، ص ١١٥- ١١٧).

[٣] (١٣٠٨-١٣٣٤هـ/ ١٨٩١-١٩١٦م) كاتب، صحافيّ، سياسيّ. وُلِدَ وتعلَّم ببيروت. واشترك مع فؤاد حنتس بإصدار جريدة المفيد اليوميّة. دخل مدرسة الصحافة في باريس ودرس علم السياسة الدوليّة. عاد إلى بيروت، واشترك مع عارف الشهابيّ في متابعة إصدار الجريدة، ونقلاها إلى دمشق في بدء الحرب العالميّة الأولى. قُبِضَ عليه وسِيْقَ إلى الديوان العرفيّ في عاليه، ثمّ حُكِمَ عليه بالموت شنقًا في بيروت. من آثاره: "المختار من ثمرات الحياة". (كحّالة، ٥ : ٢٧٧).

[٤] (١٣٠٥-١٣٣٣هـ؛ ١٨٨٨-١٩١٥م) محمّد بن مصباح المحمصاني. حقوقيّ، سياسيّ، كاتب. وُلِد في بيروت وتعلّم فيها بالكلّيّة العثمانيّة. ثمّ حصل على شهادة دكتوراه في الحقوق من باريس. من مؤسّسي جمعيّة العربيّة الفتاة. دخل في الجمعيّة الإصلاحيّة، واعتُقِلَ خلال الحرب العالميّة الأولى، فحوكم في الديوان العرفيّ في عاليه بتهمة تأسيس فرع اللامركزيَّة ببيروت، والتحريض على الانفصال عن الدولة العثمانيّة، والتظلّم من الترك، وأُعْدِمَ شنقًا ببيروت. من آثاره: "دعاة الفكرة الصِّهيونيّة". (كحّالة، ١٢: ٢٣).

[٥] (١٨٨٤-١٩١٥م) محمود بن مصباح الحمصاني، درس في مدارس بيروت، ثمّ انصرف للتجارة. في ٢١ آب ١٩١٥ أُعدم شَنقًا في بيروت مع أخيه محمّد وشهداء القافلة الأولى. (الجنديّ، أدهم، "شهداء الحرب العالميّة الكبرى"، مطبعة العروبة، دمشق، ١٩٦٠، ص ٧٧).

[٦] قلعجي، قدري، "عُمر فاخوري يتحدّى جمال باشا" مجلّة الرسالة، ٢: ١، ٥٦ و٥٧ (كانون الثاني ١٩٥٦)

[٧] مروّة، حسين، "أقانيم ثلاثة تلاقت في شخصيّة عُمر فاخوري"، الطريق، ١٥: ٥ و٦، ١٥، ١٦ (أيّار، حزيران ١٩٥٦).

[٨] من مقابلة مع وجيه فاخوري في ٣١ تشرين الثاني ١٩٦٩.

[٩] يومذاك كانت رياح جديدة تهبّ في الإمبراطورية العثمانيّة ناشدة الإصلاح. والغاية من ذلك إقامة مساواة تامّة بين جميع المواطنين العثمانيّين. وتجسّدت تلك الحركة بالمطالبة بقانون أساسيّ أو دستور يقيّد سلطة السلطان المطلقة. وتمّ لها النجاح يوم أُعلِنَ الدستور في ٢٤ تمّوز ١٩٠٨ بمساعي جمعيّة الاتّحاد والترقيّ. وبعد هذه الخطوة خُلِع السلطان عبد الحميد عن عرشه عام ١٩٠٩. ولكن سرعان ما انتهجت جماعة "تركيا الفتاة" سياسة عنصريّة طورانيّة انتهت إلى ردّات فعل كانت السبب المباشر في الدعوة إلى القوميّة العربيّة.

كذلك كان الجوّ السياسيّ والدينيّ السائد بين طلّاب الكلّيّة. ولعلّ هذا الجوّ هو الدافع المباشر الذي دفعه، من بَعد، إلى وضع باكورته الأدبيّة "كيف ينهض العرب".

وفي عام ١٩١٣ أسّس الآباء اليسوعيّون، في جامعة القدّيس يوسف في بيروت، كلّيّة الحقوق. كان عميدها يومذاك الأب René Mouterde ومديرها الأستاذ[1] Joseph Blanc. فالتحق عُمر بتلك الكلّيّة، وقضى فيها عامًا واحدًا أنهاه بامتحان ناجح[٢]. ومن أساتذته في تلك السنة Paul Huvelin[٣] وBenoît Arène[٤]. [...].

قصّة كتابه الأوّل

سعى العرب إلى تأسيس الجمعيّات السرّيّة لبثّ فكرة الانعتاق من الدولة العثمانيّة، والدعوة إلى الاستقلال. وَكَثُرَتْ هذه الجمعيّات في المدن، [وخاصّة في] بيروت ودمشق. فانضوى عمر في اثنتين منها: "الجمعيّة العربيّة الفتاة"[٥] و"حزب الاستقلال"[٦]. ولم نتمكّن من معرفة القرائن التي بها يتحدّد نشاطه في هاتين الجمعيّتين السياسيّتين. فالمراجع تسكت عن بحث هذا الموضوع غير ما ذكره رئيف خوري من أنّ عُمر كان يتعاطى، في عهدٍ من عهوده، كتابة النشرات الوطنيّة السرّيّة، ويتولّى توزيعها رغم الأخطار التي يتعرّض لها من قِبَلِ البوليس العثمانيّ[٧]. [... في هذه الفترة] ظهر كتابه الأوّل "كيف ينهض العرب" من المكتبة الأهليّة في بيروت لصاحبها محمّد جمال عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م. وبعد أن أُعْلِنَتْ الحرب العالميّة استنسب الأتراك الفرصة لإعلان الحكم العسكريّ في جميع ولايات السلطنة بما فيها جبل لبنان، ليتمكّنوا بذلك من ملاحقة جميع المطالِبين بالاستقلال والقبض عليهم فورًا والاقتصاص منهم. فوشى أحدهم بعمر لوالي بيروت بكر سامي بك[٨]، فغضب الوالي وطلب ملاحقة عُمر والقبض عليه ومصادرة كتابه تمهيدًا لإحالته على المجلس العرفيّ في عاليه. ولكنّ نسيب عُمر، محمّد الفاخوري[٩]، عضو مجلس إدارة ولاية بيروت آنذاك، ما إنْ علم بغضب الوالي حتّى سارع إليه مع والد عُمر يحاولان حمله على الرجوع عن قراره بحجّة صغر سنّ عمر، فعملُه هذا عملُ ولدٍ غيرِ راشدٍ لا تجوز محاسبته. فوعَدَ والد عُمر بإتلاف جميع نسخِ الكتاب فورًا. أمّا سبب الوشاية فيُقال إنّ أحد رجال الدين غضب لما جاء في الكتاب من عبارات

---

[1] ***Les Jésuites en Syrie 1831–1931***, Université St. Joseph, (1) L'Ecole de Droit, Beyrouth (Les Eds. Dillen, Paris.) pp. 7-9.

[٢] وثيقة مخطوطة بالفرنسيّة في كلّيّة الحقوق بجامعة القدّيس يوسف، يعود تاريخها إلى ٢٤ أيلول ١٩١٤، صادرة عن جامعة ليون في فرنسا، تخوّل بموجبها التلاميذ الذين نجحوا بالامتحان الانتقال إلى الصفّ الأعلى. ومن بين هؤلاء "فاخوري عُمر عبد الرحمن".

[٣] أستاذ القانون الرومانيّ من جامعة ليون، ومن مؤسّسي كلّيّة الحقوق الفرنسيّة في بيروت.

[٤] أستاذ القانون المدنيّ من جامعة ليون. (١٨٨٧–١٩٧٠) Nouvelles de la Faculté، العدد ٤٧، الصفحة الأولى، ٣٠ تشرين الأوّل ١٩٧٠.

[٥] تأسّست في باريس في ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٩. وكان مؤسّسوها جماعة من الطلّاب العرب. هدفها السياسيّ نيل الاستقلال العربيّ داخل إطار الإمبراطوريّة العثمانيّة، (زين نور الدين زين، "نشوء القوميّة العربيّة"، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٨، ص ٩١).

[٦] الاسم المعلن للعربيّة الفتاة السرّيّة، (كستاب، حياة، "عمر فاخوري الأديب الثائر"، مطبعة الغد، طرابلس، ١٩٦٧، ص ١٥).

[٧] خوري، رئيف، مجلّة الطريق، ٥: ٩ و١٠، ٣٩.

[٨] هذا الاسم أوردته جريدة صوت الشعب تاريخ ٢٨ و٢٩ نيسان ١٩٤٦، ص ١ و٤. ويأتي الاسم مختلفًا: أبو بكر حازم، في مقال لقدري قلعجي، مجلّة الرسالة، كانون الثاني ١٩٥٦. ٢: ١، ٥٦ و ٥٧.

[٩] ابن عم والد عمر. (من مقابلة مع وجيه فاخوري في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩).

تدّل على أنّ صاحبها يعتقد بأنّ الرابطة القوميّة بين العربيّ والعربيّ أقوى من الرابطة الدينيّة بين عربيّ وتركيّ[١]. في ذلك اليوم عاد عبد الرحمن، أبو عُمر، إلى منزله في محلّة الشيخ رسلان، وجمع كلّ نسخ الكتاب في صناديق خشبيّة وألقى بها ليلًا في بئر المنزل لتُدْفَنَ فيها إلى الأبد صونًا لحياة ولده. ويقال إنّ عمر تمكّن من إنقاذ بعض النسخ التي أخفاها عن والده، فوضعها في صندوق آخر على رفّ عالٍ من رفوف مَتجرِ أبيه. فكان أبوه ينظر إلى ذلك الصندوق عَرَضًا ولا يحفل به لظنّه أنّ فيه خرضوات نادرة يحتفظ بها أثناء الحرب لأنّ أسعار البضائع في ارتفاع[٢].

دراسة مضّطربة

في العام الدراسيّ ١٩١٤-١٩١٥، وبعد أن انتهى بسلام من تلك المشكلة، دخل الجامعة الأميركيّة في بيروت في صفّ الـ Special form ليدرس اللغة الإنكليزيّة. وتعرّف إلى محي الدين النصوليّ، الذي اشترك معه في ما بعد بتأسيس حركة كشفيّة، وإصدار مجلّة الكشّاف.

عام ١٩١٥ افتتح الوالي عزمي بك مدرسة تجاريّة ليليّة في بيروت أسماها "المكتب التجاريّ". تسجّل فيها عدد من التلاميذ لا لغاية علميّة بل للتخلّص من الدخول في الجيش التركيّ. وكان عمر في عداد الملتحقين بها. غير أنّه لم يتمكّن من المكوث فيها أكثر من ستّة أشهر. وذات يوم بينما كان عمر يتمشّى في حي من أحياء البسطة، ولا عمل يرتزق منه، ولا مدرسة إليها ينتمي، فاجأته فصيلة من الجيش التركيّ وقبضت عليه، لتسوقه إلى "الدبيّة"[٣] تمهيدًا لإرساله إلى جبهة القتال، إذ البلاد في نظام الأحكام العرفيّة، والأوامر العسكريّة الصادرة إذ ذاك، تفرض توقيف أيّ فتى تابع للسلطنة، وإلحاقه بالقوى المقاتلة، ما لم ينتمِ إلى مدرسة أو كلّيّة للدراسة. أدرك أهله المخاطر التي تحّف بحياة عمر: نجا من حبل المشنقة يوم صدور كتابه الأوّل، وهو اليوم عرضة لأن يُساق إلى جبهة القتال لكونه عاطلًا عن الدراسة. كان ذووه يومذاك على صلة وثيقة مع مدرسة الشيخ أحمد عبّاس. فهرعوا إليها في الحال، وأتو منها بشهادة مدرسيّة تمكِّن عمر من الالتحاق فورًا بقسم الصيدلة التابع "للكلّيّة العثمانيّة الطبّيّة"[٤].

وكان أن صدر يومذاك قرار يقضي بإعفاء الملتحقين بدراسة الصيدلة أو الطبّ من الانخراط الإلزاميّ في الجنديّة تلبية لحاجة الدولة إلى أطباء وصيادلة. أبرز محمّد الفاخوري وثيقة تسجيل تنبىء أنّ نسيبه عمر قد التحق بكلّيّة الصيدلة، فتّم إخراج عمر من "الدبيّة" قبل إرساله إلى صفوف العسكر. فأُنقذ رأس الفتى للمرة الثانية في مدّة لا تتجاوز العامين[٥].

ولكن ما علاقته هو بالصيدلة؟ كيف انتقل فجأة من عالم الترجمة والمطالعة والخطابة إلى عالم الأدوية والتحليل الكيماويّ وتركيب العقاقير؟

---

[١] قلعجي، قدري، "عمر فاخوري يتحدّى جمال باشا"، مجلّة الرسالة، ٢: ١، ٥٦ و٥٧ (كانون الثاني ١٩٥٦).

[٢] المرجع نفسه.

[٣] [هي بلدة لبنانيّة تابعة إداريًّا لقضاء الشوف في محافظة جبل لبنان، وقد أنشأ] الجيش التركيّ فيها مركزًا يجمع فيه الشباب الموقوفين ليرسلهم في اليوم التالي إلى الجبهة.

[٤] كان اسمها الرسميّ "عثماني طب فاكولته سي".

[٥] هذه الحادثة رواها لي وجيه فاخوري شقيق عمر بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩.

مرَّ عامان على عمر في كلّيّة الصيدلة[1]، لم يكن ليهتمّ أثناءها بدراسته.

كان يحضر المحاضرات ولا يذاكر. فهو لم يتمكَّن من استيعاب فكرة الأرقام والرموز والعناصر وتفاعلها، والاختبارات العلميّة وما إليها. تابع مطالعاته الشخصيّة في تلك الأثناء، وجميعها مطالعات أدبيّة باللغتين الفرنسيّة والعربيّة. وكان يتحيَّن الفرص ليخطب في الطلّاب. ومن خطبه المعروفة في ذلك العهد: خطبة عيد المولد النبويّ، [وحين ألقاها] كان بين الحضور عدد من أساتذته. ولمّا جاء موعد الامتحان النهائيّ آخر السنة، لم يتمكّن عمر من الإجابة الصحيحة على أيّ من الأسئلة المطروحة عليه فرسب. ولم يُكْمِل السنة الثانية لأنّها انتهت باحتلال جيوش الحلفاء للبنان عام ١٩١٨. غير أنّه حفظ من هاتين السنتين ذكريات جميلة مع أصدقاء له أمثال الدكور محمّد خالد، وجان جلخ، ووجيه عكّاري، وغيرهم. كما إنّه مارس عددًا من الأعمال أثناء انتسابه إلى كلّيّة الصيدلة. فقد درّس اللغة الفرنسيّة في بعض المدارس، كالمكتب السلطانيّ والمكتب التجاريّ، وعُيِّنَ في القنصليّة الألمانيّة لترجمة البرقيّات التي كانت ترد باللغة الفرنسيّة.

منزل قاتم

غير أنّ السنة الأولى التي قضاها في كلّيّة الصيدلة أحدثت فيه صراعًا نفسانيًّا عميقًا. هو يمرّ بمرحلة دراسيّة ما خطرت له ببال، ولا كان له شأن في اختيارها. إذًا ماذا تعني له حياته السابقة إن كانت عاجزة عن إعطائه القدرة على الاختيار؟ [...]

وينتقد نفسه يوم وقع بالغرور والأنانيّة، ويحمّل التربية البيتيّة الخاطئة تبعات ما آل إليه، فيقول: "وكان يُعِدُّني المنزل لأن أحيا بنفسي ولنفسي وفي نفسي... ولمّا جهلت الناس لم أعرف نفسي... بل عرفتُ نفسًا كبيرة في نظر الغرور والكِبَرِ الفارغ والأنانيّة الدميمة، صغيرة في نظر الحقيقة ونظري اليوم"[2].

وحشة المدرسة

إنّ ما عاناه عمر من منزله حاول أن يستعيض عنه في حياته المدرسيّة، ولكنّه اكتشف أنّ: "حياتي في المدرسة حياتي في المنزل وحاشية. والحاشية ذكرتُها، هي جهلي بالسريرة الإنسانيّة، [...]. ويصعب عليّ أن أجعل حدًّا بين المنزل والمدرسة لأنّهمّا متداخلان وتداخلهما متلبّس، وكانا يتبايعان التأثيرات بالمقايضة: ردّ فعل، وفعل رد [...]"[3].

ويتابع حديثه عن مدرسته، فنجده لا يصادق فيها معلّمًا ولا رفيقًا... فهو لم يجد بين المعلّمين من يحترمه ويحبّه، كما لم يجد بين زملائه من يبادله الإعجاب والمحبّة.

هكذا يخيب ظنّه بالمدرسة وبأجوائها، كما سبق وخاب ظنّه بالمنزل وبأفراده. فهو في الاثنين غريب ضائع لا يُعرَفُ له قرار. [...].

---

[1] ١٩١٦ و١٩١٧.

[2] مروّه، حسن، مجلّة الثقافة الوطنيّة، العددان ٤–٥، ص ٢٨–٢٩، (تمّوز– آب ١٩٥٦).

[3] المرجع نفسه، ص ٣١.

عمر الكشّاف

كان محي الدين النصولي[1]، صديق عمر وزميله في عهد الدراسة، عازمًا على تأسيس جمعيّة الكشّاف المسلم. فراح يُطْلِعُ صديقه على أهداف الحركة الكشفيّة وتعاليمها ومُثُلها العليا. فاستجاب عمر لهذه الحركة بعد أن وجدها تتيح للشبان التعرّف إلى الطبيعة ومصادقتها وتذوّق جمالها. وتذكّر تلك الرحلة إلى بحمدون التي قام بها مع رفيقه محي الدين النصوليّ، إلى عين القرَيّة، في أيّار من عام ١٩١٨، ومكثا فيها قرابة شهر، يعيشان في خيمة واحدة على رابية من الروابي الخضراء، يجالسان الطبيعة، ويقرآن وردزورث وبايرون وخليل مطران...[2]. فاندفع عمر لمؤازرة صديقه النصولي في بثّ الفكرة الكشفيّة بين الفتيان، وتعميم مبادئها، وتجسيد هذه المبادئ في نشاطات مستمرّة بين فِرَقِ الكشّافة وأفواجها.

ولعلّ هذا الاندفاع هو الذي حمل عمر على الترحيب بإصدار مجلّة الكشّاف[3] عام ١٩٢٧، والإسهام في تحريرها منذ عددها الأوّل، وطوال أعوام ثلاثة، كتب خلالها عددًا من المقالات المتفرّقة في الشعر والقصّة والتصوير، وغيرها من المواضيع.

أحبَّ عمر الكشفيّة لأنّها تقرّب الإنسان من الطبيعة، فيصادقها ويستوحيها في كثير من شؤونه الفكريّة والحياتيّة. [...]. فوجد في هذه الحركة منطلقًا عمليًّا لدعوته هو، ولموقفه الخاصّ من الطبيعة كإنسان وأديب.

عمر الصحفيّ

لم ينفصل عمر عن كلّيّة الصيدلة، كما تقدّم، إلّا بعد أن احتلّت جيوش الحلفاء لبنان وسوريا. وقامت موجة عارمة بين اللبنانيّين والسوريّين تطالب بالاستقلال. وانتشرت الجمعيّات والحركات السياسيّة لتواجه الأوضاع الجديدة.

في ذلك العام زار الأمير فيصل بن الحسين مدينة بيروت بطريقه إلى دمشق. وفي بيروت اجتمع بنخبة من الشبّان وكان عمر من بينهم. وبعد وصول الأمير إلى دمشق، قرّرت حكومته إصدار جريدة رسميّة باسم "العاصمة"، وطلب إلى عمر أن ينقلب إلى الشام ليرئس تحريرها. وغادر الفتى بيروت، وأهله كارهون، ليتولّى المهمّة المعهود بها إليه، غير أنه لم يمكث في عمله الجديد أكثر من بضعة أشهر على ما يبدو وتمتدّ، على الأرجح، بين تاريخ صدور العدد الأوّل منها أي ١٧ شباط ١٩١٩ (١٧ جمادى الاولى ١٣٣٧)، وتاريخ نشر مقاله الوحيد فيها أي ٧ أيّار ١٩١٩، لأنّ اسم عمر لم يَرِدْ على صفحات "العاصمة" إلّا مرّة واحدة. [...]. ثمّ قَفَلَ عمر عائدًا إلى بيروت.

---

١ [(١٨٩٦–١٩٦١). من مواليد بيروت. تخرَّج من الجامعة الأميركيّة في بيروت بدرجة أستاذ علوم في الاقتصاد عام ١٩٢١. مارس التجارة في شبابه، وأصدر جريدة "بيروت". ترآس الحركة الكشفيّة، وأسَّس حركة النجّادة عام ١٩٣٦. تولّى مناصب وزاريّة عدّة: الماليّة، والعدليّة، والداخليّة، والأنباء. من مؤلّفاته: من قلب بيروت، وله، في محاضرات الندوة اللبنانيّة: البلاد بين الصحافة والحكومة والمجلس، ومن وحي مقترحات برنادوت، ومن وحي الاستفتاء الانتخابيّ، ورسالة لبنان في الشرق الأدنى العربيّ (يعقوب، إميل، **موسوعة أدباء لبنان وشعرائه**، جزء ١٤، طبعة أولى، بيروت، دار نوبِليس، ٢٠٠٦، ص ٥١)].

[2] فتح الله، مصطفى، "أديب من لحم ودم"، مجلّة الطريق، السنة الخامسة، العددان ١٢ و١٣، ص ٢٢.

[3] المرجع نفسه.

لم تمرّ أسابيع ثلاثة حتّى بدأ ينشر مقالات افتتاحيّة، وعددًا من المقالات الأدبيّة في جريدة "الحقيقة"[١]. واستمرّ يكتب في تلك الصحيفة من ٢٨ حزيران ١٩١٩ (السنة ١١، العدد ١١٢٣) حتّى ١٣ تشرين الأوّل من السنة ذاتها (السنة ١٢، العدد ١١٨١). وكان يُوَقِّع باسم مستعار هو "مسلم ديمقراطيّ"[٢].

في باريس: الاكتناز الثقافيّ

نزولًا عند إلحاح ذويه، عزم عمر على السفر إلى باريس لمتابعة تحصيل الحقوق على نفقة عمّة، وكان هذا غنيًّا مُنَعَّمًا[٣]. وليس يبدو أنّه اندفع إلى مهنة المحاماة اندفاع المتهوّس. ولكنّ باريس فيها خصب الآداب والفنون الكلاسيكيّة والمعاصِرة، وفيها الحياة الصاخبة والأجواء الثقافيّة الغنيّة، فاستهواه الرحيل إليها وإنْ لم يستهوِهِ البعد والاغتراب. [...]. ومن المرجَّح أنّ عمر قد غادر بيروت متوجِّهًا إلى باريس بُعَيْدَ تاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩١٩ببضعة أيّام أو ببضعة أسابيع على الأكثر[٤]، وذلك استنادًا إلى تاريخ آخر مقال نشره في بيروت والعائد إلى ١٣ تشرين الأوّل ١٩١٩، وتاريخِ آخر صفحة من مذكّراته المؤرَّخة في ٢١ تشرين الثاني من العام نفسه.

وبعد شهرين تقريبًا، أي في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٠، بعث عمر برسالة إلى خاله في بيروت[٥] نعلم منها بعضَ تفاصيل حياته اليوميّة.

أما بشأن تفاصيل العهد الأوّل من حياته في الحاضرة الفرنسيّة فمُعَوَّلُنا رسائل عمر، وأحاديث مع شقيقه وجيه[٦].

لم تكن نشاطات عمر السياسيّة، وعلاقته مع أصدقائه في باريس، تستنزف الكثير من وقته، فكان يصرف معظمه في المطالعات الأدبيّة. فعمر مُوْلَعٌ بالأدب، لا يهتمّ بدراسة الحقوق. يُمضي النهار وهو متنقّل من مكتبة إلى أخرى يقلّب الكتب بين يديه، يقارن

---

[١]وهي جريدة سياسيّة نصف أسبوعيّة كانت تصدر في بيروت لصاحبها كمال عبّاس.

[٢]اعترض لبيب الرياشي في جريدة "الحقيقة"، على هذا الاسم المستعار. فكان ردّ عمر عليه ما يلي: "يقول "لبيب" مَن وقّع مسلم ديمقراطيّ فهو يدّل على جهل للديمقراطيّة لأنّ الديمقراطيّة لا تُنْسَبُ إلى دين، اعتراضه يدلّ على ذكائه لولا أنّ لي عليه ردًّا: إذا كان في توقيعي تناقض فليس الذنب ذنبي. إنّما هي جناية أبي عليَّ لأنه من يوم وُلِدْتُ دعاني "مسلم ديمقراطيّ" وكنت أظنّ أن سرّ المسألة لا يخفى على ذكاء اللبيب..."، "الحقيقة"، السنة ١١، العدد ١١٤١، ص ١، بيروت، ٢٨ تمّوز ١٩١٩.

[٣]الشريف، إحسان، "أيّام لنا في باريس"، مجلّة الثقافة الوطنيّة، العددان ٤–٥، ص ٢٦ و٣٣ (تمّوز–آب ١٩٥٦).

[٤]لم أقع على ما يشير بالضبط إلى تاريخ سفره إلى باريس.

[٥]نَشَرَتْ هذه الرسالة، مجلّة الثقافة الوطنيّة، العددان ٤–٥، ص ٦٠–٦١ (تمّوز– آب ١٩٥٦).

[٦][نعلم من إحدى رسائله أنّه نزل]، عند وصوله إلى العاصمة الفرنسيّة، في فندق ستيل، وفي شارع "كلود برنارد" الذي يبعد عن جامعة باريس خمس عشرة دقيقة؛ وأنّه، وفي الفندق نفسه وفي غرفة مجاورة لغرفته، كان ينزل زميله "توفيق"، وأنّ بدلات الإيجار كانت مرتفعة جدًّا. ثمّ يأتي على ذكر أصدقائه الجدد. فمن الذين كان يتبادل الزيارات معهم محمّد رستم حيدر، ونجيب شقير في الوكالة العربيّة. [...]. ومن أصدقائه أيضًا الذين يذكرهم، في رسالته هذه، إبراهيم سليم نجّار الذي اجتمع به صدفة في إحدى المقاهي وكان قد عرف بوصول عمر. [...]. ومن صحبه أيضًا في باريس: حبيب أبو شهلا، الدكتور حريز، أحمد شوقي، الدكتور نجيب فرح، الدكتور توفيق رزق، عبدالله المشنوق، محي الدين نصوليّ، خيرالله خيرالله، صلاح اللبابيدي، عبدالله اليافي.

أمّا "طقم الطلّاب السوريّين"، كما يسميّهم، فمنهم حلمي البارودي وتوفيق الأحدب وإحسان الشريف [...]. وتعرّف عمر في مقهى "السوفليه" في شارع "السان ميشال" إلى عدد من الطلّاب العرب الذين يتردّدون إليه. وكثيرًا ما كانوا يتناقشون في الشؤون السياسيّة المتعلّقة ببلادهم ومصيرها. وبرزت فكرة إنشاء جمعيّة تضمّ جميع هؤلاء الشباب، تنطق باسمهم ويُسْمَعُ صدًى لصوتها في أوروبّا وبلدان الشرق الأوسط. فتأسّست الجمعيّة العربيّة عام ١٩٢٠، وكان عمر من المؤسّسين. غير أنّها لم تدمْ أكثر من عامين، فقد انحلّت عام ١٩٢٢. ثمّ قدم الدكتور عبد الرحمن شهبندر إلى باريس وبعثها من جديد، بعد أن انتقل شمل الطلّاب من مقهى "السوفيله" إلى مقهى "السورس"، وعاد نشاطهم السياسيّ ثانية كما كان عليه في السابق. ومن نشاط هذه الجمعيّة أنّها أرسلت وفدًا من أعضائها، ومن بينهم عمر، لمقابلة الزعيم السياسيّ الفرنسيّ مارسال كاشان. في هذه الأثناء كان عمر قد انتقل من عنوانه الأوّل إلى فندق "ترمينوس" في شارع "برون"، منطقة "بورت دورليان".

بينها، جديدها وقديمها، الكلاسيكيّ والمحدَث، الأدبي والفنّيّ، القيّم والمبتذَل، ثمّ يشتري بعضًا منها وينصرف إلى حيث يجالس كتبه. وكيثرًا ما كان ثمن الكتب يفوق ما كان رصدَ لها، فلا يتردّد من أن يستعيض بهذه الكتب عن عشاء تلك الليلة فيُمضي وقتَه بصحبتها[1].

وأتاحت له هذه المطالعات الغنيّة مصادقة عدد من كبار أدباء الفرنسيّين والإنكليز عن طريق ما كتبوا، ومن غير معرفة بهم. ومن هؤلاء: أناتول فرانس[2] الذي أُعجِبَ به أشدَ الإعجاب، وتَرجَم له مجموعة من أقواله في ما بعد، ورومان رولان الذي ترجم له أيضًا كتابه عن غاندي، وأندريه جيد وأوسكار وايلد، اللذان شاركهما في إحساسهما المرهف، وربّما الشاذّ أحيانًا، وتأمّلاتهما في الناس والصداقة والحياة... كما شغف أيضًا بادباء أمثال تريستان برنار وجول رومان وغيرهما...[3].

واظب عمر على حضور المسرح الباريسيّ. عرف المسرح الكلاسيكيّ في الكوميدي فرانسيز والأوديّون والشاتليه. وعرف الكوميدي أو الملهاة في الجيمناز ومسرح أنطوان. أمّا الأوبرا فقد عرف أجملها على مسرح ساره برنار[4].

هكذا كان يقضي عمر وقته في العاصمة الفرنسيّة، بين الكتب والمسارح. ولا تفوته حياة اللهو والمجون، فلها في فؤاد الفتى الشرقيّ المحروم مجاعة المتشهّي. فهو أصلًا ما قدم إلى باريس ليحصر همَّه في كتب الحقوق، كما شاء ذووه، ولكنّه أتى ليكون في احتفال دائم بالحياة على وجوهها. ويقول صلاح اللبابيدي، زميل عمر في باريس، عن شغفه بالمطالعة وبالحياة معًا... [...]: "وكانت أيّام عمر في باريس أجمل أيّام حياته... وما زلتُ أتمثّله واقفًا في ساحة من الساحات الكبرى، أو في متحف من المتاحف، أو متأمّلًا في عظمة برج إيفل وكأنّه مسحور بروعة الفنّ. وكم حدّثني عن ألمه كلّما كان يتصوّر أنه مفارِق هذه المباهج وكانت تتجسّم في قلبه هذه اللوعة إذا شيّعنا أحد الرفاق العائدين إلى المحطّة. فإذا ضرب القطار في الأرض، التفتَ عمر إلى الواقفين معزّيًا يقول: " عظَّم الله أجرَكم"... وظلّ عمر في باريس بعد أن أتمّ دراسته فيها حتّى أتى على آخر درهم يملكه أو يستطيع الحصول عليه..."[5]. ولا بدّ لعمر من مغامرات عاطفيّة، مرَّ بعضها مرورًا عابرً، وترك البعض الآخر أثرًا لم تطمسه الأيام. عرف الكثير من بنات الليل. ولكن قلّما وجد لنفسه صديقة من بين زميلات الدراسة أو سائر معارفه. ولم يَحُلْ ذلك دون وقوعه في حبّ فتاة فرنسيّة جميلة تدعى Lili، بادلته الحبّ زمنًا[6]، ثمّ انصرفت عنه لتترك في قلبه جرحًا ينزف ألمًا وحرقة طوال أعوام.

---

[1] الشريف، إحسان، "أيّام لنا في باريس"، مجلّة الثقافة الوطنيّة، العددان ٤-٥، ص ٢٦ و٣٣ (تموز-آب ١٩٥٦).

[2] لم يجتمع عمر فاخوري بأناتول فرانس كما ذكرت الآنسة حياة كسّاب في كتابها "عمر فاخوري الأديب الثائر". فقد ذكر لي شقيقه وجيه أنّ عمر لَمَحَ عن بُعد أناتول فرانس عددًا من المرّات في أحد المقاهي الباريسيّة دون أن يجتمع به. أمّا قصّة الصورة التي تجمع بين الملك فيصل وأناتول فرانس والتي كان يحتفظ بها عمر فإنْ دلّت على إعجابه بالرجلين فلا تدّل بالضرورة على اجتماعه الشخصيّ بأناتول فرانس.

[3] راجع حبيش، فؤاد، "أندريه جيد وعمر فاخوري"، المكشوف، ٥ : ٢١٨، ٤ (٩ تشرين الأول ١٩٣٩)، وصقر، موريس، "العربيّ الذي فكّ الرصد"، الرسالة، ٢: ١، ٥ و٦ (كانون الثاني ١٩٥٦).

[4] من حديث مع شقيقه وجيه بالتاريخ نفسه.

[5] اللبابيدي، صلاح، كتاب "الثمالات"، (دار الثقافة، بيروت، [د.ت.]) ص ١٧٦.

[6] خوري، عزيز، "عمر فاخوري، حياته وآثاره"، ص ٨، يذكر ما ملخّصه: حلمت Lili أنّها آتية إلى الشرق أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة، تحيا حياة غنيّة مترفة. ولكن أنّى لعمر أن يحقِّق مثل هذا الحلم، وهو الذي يُقَتِّرُ على نفسه لأنّ ذويه عاجزون عن تلبية جميع رغباته. لم يتّم الزواج بينهما لأنّ الفتاة الفرنسيّة راحت تبحث عن تحقيق حلمها مع فتى آخر. وكان هذا الفتى

تسجَّل عمر في كلّيَّتي الحقوق والآداب في السوربون. أمّا الحقوق فكان يدرسها على نفسه مع زملاء له وأصدقاء، في العشايا. وما كان يختلف إلى المحاضرات في الكلّيّة نظاميًّا، ولا يتابعها إلّا لتقديم الامتحانات. لكنّ كلّيّة الآداب كانت تعني له ما لم تَعْنِهِ كلّيّة الحقوق. إذ يتردّد إلى كلّيّة الآداب لسماع محاضرات حول عدد من القضايا الأدبيّة التي يستطيب. وهو لا يتتبَّع التحصيل تتبّعًا مسؤولًا لتقديم الامتحانات النهائيّة. وهكذا يتبيّن لنا أنّ الحقوق كانت بالنسبة لعمر على هامش الأدب منذ بداية عهده.

لم تشغل حياة باريس عمر عن أهله، ولا خفّفت من حنينه إليهم. وفي رسائلة قرائن تُعرِبُ عن لهفته إذ يسترجع أصغر التفاصيل شأنًا. فهو يتحدّث إلى والدته عن نارجيلتها، ويهتمّ بإنفاذ "طلبيّة" من "الكبسول" إلى والده.

في العام الدراسيّ الثالث كان وجيه، شقيق عمر، قد سافر إلى باريس للالتحاق أيضًا بكلّيّة الحقوق لمتابعة دراسته. وكان من الصعب على الأسرة أن تتحمّل نفقة شابّين من أعضائها يدرسان في العاصمة الفرنسيّة، فبعثت إلى عمر تستدعيه إلى الوطن والبدء بالعمل. غير أنّ عمر لم يكن يرغب بمغادرة المدينة التي يربطه بها العديد من الذكريات العاطفيّة والثقافيّة. فراح يماطل ما استطاع حتّى جاءت نهاية العام الدراسيّ، فتقدّم من امتحانات السنة النهائيّة، ولكنّ الحظ بالنجاح لم يحالفه، فاضّطرّ، على إلحاح ذويه، أن يعود إلى بيروت. وكان ذلك صيف ١٩٢٣.

في خريف ذلك العام سافر عمر للمرّة الثانية والأخيرة إلى باريس، آملًا أن يَتِمَّ له النجاح هذه المرّة لنيل إجازة الحقوق. وتمّ له ما أراد. ونال الإجازة وقَدِمَ بيروت محاميًا يكره المحاماة قدر ولوعه بالأدب[١].

عود إلى الصحافة

لم يمكث عمر طويلًا في بيروت. توجّه إلى دمشق حيث أسهم في تحرير جريدة "المفيد"[٢]. ثمّ كتب في جريدة الميزان[٣] وكان ذلك في العام ١٩٢٥، وبالضبط بين ٣١ آذار (السنة الأولى، العدد ١١) و٨ كانون الأوّل منه (السنة الأولى، العدد ٤٣). وإنّ ما نشره، في تلك الفترة، كان ترجمة أو نقدًا اجتماعيًّا وأدبيًّا. فمن الترجمة ما جمعه في ما بعد في كتاب أسماه "آراء غربيّة في مسائل شرقيّة"، وقسم من كتاب "أقوال أناتول فرانس". أمّا سائر مقالاته النقديّة فقد نشر القسم الأكبر منها في كتابه "الباب المرصود". يبقى مقالان في الميزان غير منشورين في كتبه سنأتي على ذكرهما. ويذكر عزيز خوري، في رسالته عن عمر فاخوري، أنّه حرَّر أيضًا في جريدة الفيحاء في دمشق في تلك الفترة[٤].

من أثرياء آل البارودي من حماه. فمالت إليه وتغافلتْ عن حبّها لعمر. وبعد مدّة التقى الشابّان في أحد المقاهي الباريسيّة وتعاتبا. ولما سأله عمر عن السبب الذي دفعه لانتزاع Lili منه أجاب: "لأنّك لا تستطيع أن تكفيها أمورها"، فنظر إليه عمر بازدراء، وقال له بسخرية أليمة: "أنت تستطيع أن تكفيها أمورها، لأنّك حمار يحمل ذهبًا".

[١] من حديث مع شقيقه وجيه بنفس التاريخ.

[٢] لم أتمكّن من العثور على أيّ مجلّد أو نسخة من هذه الجريدة، لا في بيروت ولا في دمشق، وبالتالي لم أتمكّن بالضبط من تحديد كتابته فيها.

[٣] وهي أدبيّة أسبوعيّة لصاحبها أحمد شاكر الكرميّ.

[٤] خوري، عزيز، ص ٩. وهذه أيضًا لم أعثر على أيّ أثر لها.

وقد أخطأ البعض حين اعتقد أنّ عمر فاخوري هو الذي ترجم مذكّرات Piquique عن الإنكليزيّة لشارلز دِكنز[١]. فمُترجِمها هو أحمد شاكر الكرميّ بناء على ما ورد في مقالين له في جريدة الميزان، الأوّل بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥[٢]، والثاني بتاريخ ١٠ آذار من العام نفسه[٣].

عام ١٩٢٦ عزم عمر على العودة إلى وطنه والاستقرار فيه نهائيًّا، بعد أن أقنع نفسه بضرورة ممارسه المحاماة على الرغم من كرهه لها. وفي ذلك العام أيضًا توقَّفت جريدة الميزان عند وفاة صاحبها بداء السل[٤].

وفي بيروت تولّى عمر الصفحة الأدبيّة في مجلّة "الأحرار المصّورة" الأسبوعية لصاحبها جبران التويني. عهد ذاك كتب عددًا من المقالات التي نُشِرَتْ في ما بعد في "الباب المرصود"[٥].

عضو المجمع العلميّ العربيّ

انتُخِبَ عمر عضوًا مؤازِرًا في المجمع العلميّ العربيّ في دمشق بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٧. ونتبيّن ذلك من الرسالة التي بعث بها إليه محمّد كُرْد عليّ رئيس المجمع[٦]. وأجابه عمر برسالة شُكْر[٧] [...] يتبيّن لنا، من نصّها، أنّه (عمر) اعتبرَ أنّ انتخابه عضوًا مُراسِلًا أو مؤازِرًا ليس إلّا من قبيل التشجيع. ولعلّ هذا ما يفسّر عدم قيام عمر بنشاط مرموق في المجمع، ولا في مجلّة المجمع. فكلّ ما نُشِرَ له في هذه المجلّة كان ترجمة لبعض أقوال أناتول فرانس في عدد من أعدادها[٨].

عمر المحامي

شرع عمر بمارسة المحاماة في بيروت. ففتح مكتبًا مع شريكَين له، وزميلَين منذ عهد الدراسة، هما: صلاح اللبابيدي وعمر الزعنّي. ويقع المكتب في بناية المقاصد الخيريّة، شارع الإفرنسيّين[٩].

لم يبذلِ النفسَ في سبيل قضيّة يربحها ويتقاضى أجرها على ما يبدو، بقدر ما كان يبحث عن الظرف والتهكّم والتدقيق في آراء المشترعين. ويقول فيه اللبابيدي: إنّه إذا وقع على ما يروق له فكأنّه حظيَ على بيت من الشعر الصافي[١٠]. وإذا جاء أحد الموكِّلين يشرح قضيّته، أصغى إليه عمر حتّى يصل إلى جوهرها، فإن راقت له ظلّ مصغيًا وإلّا رجع إلى كتابه تاركًا الموكِّل في عهدة زميله

[١] فقد ذكر عزيز خوري في رسالته أنّ عمر لَمَعَ في الأوساط الأدبيّة عندما نشر في جريدة الميزان مذكّرات Piquique . وربّما لم يتسنَّ للسيّد خوري الاطّلاع على جريدة الميزان نفسها ليتحقّق من صحّة هذا القول.

[٢] السنة الأولى، العدد ٢، صفحة ١.

[٣] السنة الأولى، العدد ٨، صفحة ٢.

[٤] الكيّالي، سامي، "خواطر سريعة"، مجلّة الطريق، السنة الخامسة، العددان ٩ و١٠، ص ١٤.

[٥] كرم ملحم كرم، "السلام على عُمَر"، الطريق، ٩: ٤ و٥، ٨٦ و٨٧ (نيسان وأيّار ١٩٥٠).

[٦] يُراجع نصّ هذه الرسالة في كتاب أمين ألبرت الرَّيحاني **قلم يفكّ الرّصد أو عمر فاخوري سيرته وأدبه**، مرجع سابق، ص ٣٨.

[٧] يُراجع نصّها على الصفحتين ٣٨ و٣٩ من المرجع ذاته.

[٨] مجلّة المجمع العلميّ العربيّ، دمشق، ٢٠: ١١ و١٢، ٥٥٨ (تشرين الثاني وكانون الأوّل ١٩٤٥) و٣١: ٤، ٥٣٤، و٥٤٤ (تشرين الأوّل ١٩٥٦).

[٩] أي في آخر شارع طرابلس، اليوم.

[١٠] اللبابيدي، صلاح، "عمر المحامي"، مجلّة المكشوف، السنة ١٢، العدد ٣٤٠، ص ١٤ (٣ آب ١٩٤٦).

اللبابيدي ليستمع إلى بقية حديثه ناسيًا أنّ في المكتب غيره من الخلق. ويتابع اللبابيدي تدوين هذه الذكريات فيقول: "ولا أذكر يومًا من الأيّام التي قضيناها معًا في المحاماة عرف فيه الأجر الذي تقاضيناه من أحد الموكِّلين، فإنّ جلده كان يضيق من أن يهتمّ بمثل هذه التوافه. وكلّ ما كان يهمّه من الأمر أن يجد في خزانة المكتب المتواضعة ثمن كتاب يشتريه، فإن لم يجِدْهُ أضافه إلى حسابه الخاصّ في المكتبات التي كانت ترى فيه أكبر المستهلكين"[١]. [...]

سَئِمَ عُمَرُ المحاماةَ، إذ إنّها لم تدرّ عليه ما يضمن له الحياة الكريمة. وكثيرًا ما كان يدفع هو رسوم معاملات زبائنه[٢]. فقرّر التخليّ عنها، وآثر الوظيفة، فعُرِضَ عليه منصبان: القضاء أو أمانة السّجل العقاريّ. فاختار الثانية[٣].

رحلة إلى حلب

يقول سامي الكيّالي إنّ أحد المستشرقين[٤] قدم إلى بيروت بحدود صيف ١٩٢٨ متّجهًا إلى حلب، لمتابعة أبحاثه الأثريّة. فاقترح على عمر أن يصحبه في رحلته العلميّة هذه، فوافقَ وذهبا معًا إلى حلب حيث واصل المستشرق تنقيباته في "قرة قمش" و"تلّ حلف" عن آثار الحثيّين فيهما. وبقي عمر في رحلته هذه بضعة أشهر أفاد خلالها الكثير من المعلومات التاريخيّة والأثريّة والعلميّة. ويقول سامي الكيّالي إنّ لهذا المستشرق كتابًا[٥] عن حياتنا الشرقيّة وعاداتنا كتب عمر فاخوري أكثر بحوثه وحقَّق فيها[٦].

وقد تسنّى لعمر، في هذه الرحلة، أن يطّلع على مكتبات حلب وما فيها من المؤلّفات القديمة والحديثة. فكانت الفائدة مزدوجة: تنقيب أثريّ علميّ، ومزيد من المطالعات الأدبيّة، تجتمع معًا لتضيف جديدًا إلى مكنوزه الثقافيّ. وجاءت هذه الرحلة يوم بدأ يدبّ اليأس في نفس عمر من أجواء مهنته، ومن فقر الحياة الثقافيّة التي كان يحياها. فكانت بلسمًا يضمّد جراحه، ويبعث فيه الأمل.

في الدوائر العقاريّة

في أوّل آذار عام ١٩٢٩، صدر مرسوم يقضي بتعيين عمر فاخوري أمين السجل العقاريّ من الدرجة الثانية. وذلك بعد أن تقدَّم عمر بطلب[٧] تعيينه لدى هذه المديريّة مرفقًا بشهادة حسن سلوك، وشهادة طبّيّة، ونسخة عن سجلّه العدليّ[٨]. وبعد مضيّ أربعة أشهر

---

[١] المرجع نفسه.

[٢] من حديث مع زوجته بتاريخ ٢ كانون الأوّل ١٩٦٩.

[٣] اللبابيدي، المكشوف، ١٢: ٣٤٠، ١٤. ولمّا سأله زميله صلاح اللبابيدي عن سبب هذا الاختيار أجاب بسخريته المعهودة: "أتريدني أن أكون من القوم الذين قال عنهم أستاذنا أبو عثمان: "احتال الآباء في حبس الأموال على أولادهم بالوقف، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار. ما أسرعهم إلى إطلاق الحَجْرِ وإلى إيناس الرشد إذا أرادوا الشراء منهم، وأبطأهم عنهم إذا أرادوا أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم! لا، أنا لا أريد ذلك، ولو أردت القضاء لما عفْتُ المحاماة..."

[٤] يقول الأستاذ مواهب فاخوري، شقيق عمر الأصغر، إنّ هذا المستشرق هو الألمانيّ أوبنهايم.

[٥] لم يذكر اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه.

[٦] الكيّالي، سامي، "خواطر سريعة"، مجلّة الطريق، ٥: ٩ و١٠، ١٥.

[٧] رقم الطلب ٤٦١٥.

[٨] جاء في شهادة حسن السلوك لمختار المحلّة، كما هو وارد في مقال للأستاذ رياض حنين في مجلّة الحكمة، ٥: ٩، ٨: "عمر أفندي بن عبد الرحمن الفاخوري من أهالي بيروت الساكن في محلّتنا الباشورة هو من ذوي الأخلاق الحسنة والسيرة الحميدة وعليه أَعْطَيْتُ هذه الشهادة بحسن حال المومى إليه. تحريرًا: ٢١ شباط ١٩٢٩، الإمضاء غير مقروء". وجاء في الشهادة الطبّيّة، الوارد نصّها في المقال المذكور أعلاه: "معاينة الأستاذ عمر أفندي فاخوري: وُجِدَ بصحّة جيّدة وليس فيه مرض سارٍ ولا سواه. وبطلب منه أُعطي له هذه الشهادة". الدكتور أنيس قدّورة، ٢٣ شباط ١٩٢٩. أمّا في نسخة سجلّه العدليّ فنقرأ: "إنّ الشخص المحرَّر اسمه وكنيته أعلاه لم يصدر بحقّه حكم قطعيّ".

ونصف انتُدِبَ للقيام بأعمال في أمانة السجلّ المركزيّ[١] بدلًا من أمين السجّل المتوفّى جورج نحّاس. وبعدها تدرَّجَ عمر في مناصب عديدة ومختلفة في ملاك مديريّة الدوائر العقاريّة[٢]، حيث قضى سبعة عشر عامًا حتّى وفاته، كان خلالها حريصًا على القيام بمسؤوليّاته على أتمّ وجه، وعلى مساعدة أصحاب العلاقة وتوجيههم وتَتَبُّعِ مصالحهم في كثير من الأحيان من دائرة إلى أخرى، للإسراع في إنهاء معاملاتهم.

كان عمر، بحكم وظيفته كأمين للسجّل العقاريّ، يستمع إلى العقود، ثمّ يحيلها إلى معاون أمين السجّل ليتولّى تسجيلها في الصحيفة العينيّة[٣]. وكثيرًا ما كان يضّطرّ للخروج من مكتبه ليستمع إلى العقود في منزل أحد أصحاب العلاقة[٤]. وعندما أصبح مفتّشًا في الدوائر العقاريّة تحوّلت مهمّته لوضع التقارير عن سَير الأعمال، وعن نشاط الموظّفين في تلك الدوائر، وتقديم هذه التقارير إلى المدير المركزيّ[٥].

أحبّه الموظفون واحترموه. فقد بقيَ أثناء الوظيفة، كما في خارجها، ظريف المعشر، سريع الخاطر، مُحِقًّا، خَدومًا، مُندفعًا لتنفيذ مهمّته على أكمل وجه[٦].

حبّه

كان أوّل حبّ عرفه عمر في صباه ذلك الذي اجتذبه نحو سلوى طيّارة ابنة خالته الصغرى. عرف حلاوة الطفولة وبراءتها. وعرفا معًا حيويّة الفتوّة المغلَّفة بحبّ متبادَل. فكان له ذكريات حملها معه إلى باريس. إذ استمرّ يذكرها في رسائله إلى ذويه يسأل عنها، وكأنّها احتلّت مكانًا في قلب الفتى ما تمكَّن أحد سواها من احتلاله في ما بعد. فقرّر عام ١٩٣١ أن يتزوّجَها[٧]، وتزوّجها بالفعل.

غير أنّ القدر راح يترصدّ الشاب ليستردّ منه السعادة التي بدأ يعرف طعمها. حملَتْ سلوى وبات العروسان بانتظار مولودهما البكر. وجاءت ساعة الوضع. كان المخاض عسيرًا، ولم تتمكّن سلوى من التغلّب عليه، وانتابتها حُمّى النِّفَاس فأدّت إلى وفاتها. وماتت الأمّ والوليد[٨].

ضربة قاضية، حطَّمَت عُمر. داخلَتْهُ سويداء قاتمة أبعدَته عن الناس والمجتمع، وانطوى على نفسه في صمت رهيب. وهجر القلم وأصدقاءه من الكتّاب والأدباء.

---

[١] بموجب مرسوم رقم ٥٥٠١ تاريخ ١٦ آب ١٩٢٩.

[٢] [وللمزيد من التفاصيل حول هذه المناصب التي تدرّج عمر فيها، يُراجَع كتاب الدكتور أمين ألبرت الرّيحاني، ص ٤٣-٤٤، حاشية رقم ٣.]

[٣] ذكر لي الأمير إميل فاتك شهاب في ١٤ كانون الثاني ١٩٧٠، وهو خَلَفُ عمر فاخوري في أمانة السجلّ العقاريّ منذ حزيران ١٩٤٠، أي حين أصبح عمر مفتّشًا في هذه الدوائر، وحتّى حزيران ١٩٦٠، ذكر أنّ عمل أمين السجلّ يتلخّص بمراجعة أوراق العقد بين متعاقدين حول بيع أو شراء أو تأمين أو إفراز. وعندما يتأكّد من صحّتها وقانونيّتها يوقّع العقد ثمّ يحيله لمعاونه الذي يوقّعه بدوره ويسجلّه في الصحيفة العينيّة.

[٤] عند تأدية هذه المهمّة كان يتقاضى ما يُسمّى بتعويض انتقال: وقيمة هذا التعويض تتراوح بين نصف ليرة ذهب (يومذاك) وليرتين. وتعادل نصف الليرة الذهب ٢٧٥ ق.ل. تقريبًا، أي نحو خمسين ليرة لبنانيّة من حيث القيمة الشرائيّة. وهذه المعلومات أخذتُها من مقابلتي مع الأمير إميل فاتك شهاب بنفس التاريخ المذكور أعلاه.

[٥] كان المدير المركزيّ آنذاك الأستاذ أمين مشحور.

[٦] من مقابلة مع الأمير إميل فاتك شهاب بالتاريخ نفسه.

[٧] من حديث مع شقيقه وجيه بتاريخ ١٠ آذار ١٩٧٠.

[٨] المرجع نفسه.

بقي عمر على هذه الحال ما يقارب السنة. خاف أهله عليه وعلى مصيره، فراحوا يشجّعونه على الخروج من البيت للترفيه عن النفس ونسيان الماضي. فوجد عمر نفسه منصرفًا لحياة اللهو، وشرب الخمرة، والمجون.

ويغسل آلامه بالقمار والسِّباق حتّى الإدمان. فكان يُنْفِقُ، في هذا السبيل، كلّ ما في جيبه. وإذا سأله سائل أن يكفّ عن اللعب والرهان بالسِّباق أجاب مفلسفًا بأنّه "يختصر الحياة بشوط على حصان"[١].

زواجه الثاني

بعد عامين من غروب وجه سلوى، تعرَّف عمر إلى فنّانة هنغاريّة تُدعى Margueritte Katz كانت تعمل في ملهى "الكيت كات"[٢]، وتوثَّقت بينهما الروابط. وبعد أربع سنوات، أي في عام ١٩٣٧، قرّرا الزواج. وعلمتْ أسرة عُمَر بهذا القرار ولم تكنْ راضيةً لأنّ السيّدة[٣] كانت على دين غير دينه، وبيئة غير بيئته، وسلوك قد لا يرتضيه ذووه. فأخذه صراع بين نداء قلبه ومراعاة أهله. حاول عمر إقناعهم فما أفلح. فقرّرت مرغريت مغادرة لبنان والعودة إلى بلادها. فلمّا وصلتْ إلى تركيا كتب إليها عمر يسألها العودة ليتمّ الزواج بعد استرضاء ذويه. فعادت وعقدا قرانهما حسب الشرع الإسلاميّ السُّنّيّ، في العام نفسه.

غير أنّ زواجه باعَدَ الشقّة بينه وبين أهله فكانت والدة عمر، إذا تأخّر عن زيارتها تلمُّ بمنزله تناديه من الطريق تستطلع حاله، ولا تدخل المنزل اجتنابًا لمقابلة زوجته[٤].

لم تكن حياتهما الزوجيّة هانئة. فقد ظنّ عمر أنّ حبّه الثاني هذا هو التعويض الذي يمكنه الحصول عليه بعد مأساة حبّه الأوّل. ولكنْ سرعان ما اكتشف أنّ لا شيء في الحياة يستطيع أن يكون عوضًا[٥]. فضاعف ذلك كآبته وسويداءه. حدثّته امرأته عن ضرورة العودة إلى الكتابة. ألحَّ عليه أصدقاؤه، فعاد، ولكن في حرص وحذر. كان يترجم أحيانًا ما يكتب بالعربيّة إلى زوجته بالفرنسيّة، وذلك شفاهًا، كي يحملها على مشاركته في ما يشغل فكره ووجدانه[٦]. وهذا لم يمنع وقوع الخصام بين الطرفين بين حين وحين، ويحزّ الأسى نفسَ عمر[٧].

ما تمكَّنَتْ هي يومًا من تقدير مواهب الكاتب الأديب في زوجها. ولعلّ جهلها اللغة العربيّة كان سببًا رئيسًا في هذا العجز. فباءت محاولات عمر بالفشل. وعاد إلى حرق لياليه في عُلب الليل وأماكن اللهو، حتّى إذا ما عاد إلى منزله انزوى في غرفته بين كتبه وأوراقه. ويقول الشيخ فؤاد حبيش أحد أصدقائه: "كنت أراه أحيانًا في قاعات الملاهي الليليّة في بيروت: "الفونس"، و"الكيت كات"،

---

[١] من مقابلة مع الأستاذ صلاح الأسير بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٧٠.

[٢] كان عمر يرتاد هذا المقهى بصحبة صديق له هو جبرائيل المرّ الذي أصبح نائبًا ووزيرًا بعد عهد الاستقلال.

[٣] ذكرَتْ لي أنّها كانت متزوّجة ولم تُنْجِب.

[٤] من مقابلة مع زوجة عمر بتاريخ ٢ كانون الأول ١٩٦٩.

[٥] من مقابلة مع الأستاذ صلاح الأسير بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٧٠.

[٦] من حديث مع زوجة عمر بالتاريخ نفسه.

[٧] ذكر لي الدكتور فؤاد افرام البستاني، بتاريخ ٢١ شباط ١٩٧٠، أنّ حياة عمر في زواجه الثاني لم تعرف الاستقرار. فقد كان مع زوجته في خصام مستديم.

و"المطعم الفرنسيّ". كان يسكن في البسطة على مسافة مئة متر من الكراكول، في بيت تحت الطريق أنيق الأثاث، يدلّ على ذوق رفيع. أمّا غرفته فكانت كساحة قتال: كتب ودفاتر وأقلام مُبعثَرة، وثياب متراكمة فوق السرير وحوله وتحته، وفناجين قهوة فارغة وأعقاب سكاير، وكنّا نلتقي مرّة في الأسبوع على الأقلّ في مكتبة "بنيار" في جادة الإفرنسيّين"[١].

حاول عمر، في المرحلة الثانية من حياته الزوجيّة، أن يخلق جوًّا أدبيًّا في منزله علّه يجد في ذلك المناخ بعض العزاء، وبعض التعويض الروحيّ. ويتابع فؤاد حبيش قائلًا: "كنّا نقصد إليه في السهرة: الياس أبو شبكة، وخليل تقيّ الدين، وأنا، فنلعب البوكر معًا، ولعبة ورق غيرها. وكان يُسْمِعُنا، في كلّ مرّة، مقالًا يتمخّض به..."[٢].

عُمَر والحرب

عاد إلى الأدب، ولم يتحوَّل عن عزلته حتّى عام ١٩٣٩. بذل الجهد في إغناء حياته الأدبيّة فراح يرصد الجمالات الكتابيّة في الشعر والنثر، في القصّة والمقالة، والتعمُّق في التحليل النقديّ كأنّما عثَرَ على عنصر تعويض نفسيّ.

أُعْلِنَتِ الحربُ، ووصل دويّ مدافعها إلى بيروت. وتعرَّف عمر، عن طريق الصحافة، إلى فئة منتمية إلى الحزب الشيوعيّ السوريّ اللبنانيّ الذي كان يتزعَّمه خالد بكداش، وفرج الله الحلو، وغيرهما. فعاد إلى مزاولة الصحافة أثناء الحرب بعد انقطاع مديد. كتبَ في مجلّة "المراحل"[٣]، وحرَّر في جريدة "العهد الجديد" مع رياض الصلح وخير الدين الأحدب[٤].

ثمّ انخرط في عُصبة مكافحة الفاشستيّة والنازيّة[٥]، ثمّ في جميعة أصدقاء الاتّحاد السوفياتيّ التي ترأّسها من بعد، وأصبحت معروفة باسم جمعيّة الصداقة اللبنايّة السوفياتيّة. وقد ساند جهود الحزب الشيوعيّ السوريّ اللبنانيّ. وكانت النازيّة والفاشستيّة، أو ألمانيا وإيطاليا، على جبهة موحَّدة، وكانت الحكومة اللبنانيّة إلى جانب الدول الحليفة، على جبهة أخرى[٦].

أمّا نشاط العُصبة التي انتمى إليها عمر فكان مركَّزًا على الاتّصال المباشر بالشعب عن طريق الرحلات التي كانت تقوم بها إلى المدن الكبرى: طرابلس وحمص وحلب ودمشق، وغيرها، ممّا أتاح لعمر التعرّفَ عن كثب إلى الجماهير، وتحسَّسَ قضاياها بشكل عفويّ

---

[١] جبر، جميل، "فؤاد حبيش يتحدّث عن صديقَيه عمر فاخوري والياس أبو شبكة". مجلّة الحكمة، ٦: ٩، ٩ و١٠ و١١ (تمّوز ١٩٥٧).

[٢] المرجع نفسه.

[٣] كرم ملحم كرم، "السلام على عمر"، مجلّة الطريق، ٩: ٤ و٥، ٨٦–٨٧ (نيسان–أيّار ١٩٥٠).

[٤] من حديث مع صلاح الأسير بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٧٠.

[٥] لقد أخطأ الدكتور جورج حنّا حين ذكر في مقالين له في مجلّة الطريق (٨: ٩، ٢٢ أيلول ١٩٤٩ و٩:٤ و٥ نيسان وأيّار ١٩٥٠) بأنّ عمر هو الذي أسّس جمعيّة مقاومة النازيّة والفاشستيّة، لأن هذه الجمعيّة قد تأسّست عام ١٩٣٧ وأصدرت نشرة موقَّعة من أنطون ثابت في ١٤ تمّوز ١٩٣٧. وقد نشرت جريدة المكشوف خبرًا عن هذه الجمعيّة ذكرتْ فيه أنّ قانون هذه الجمعيّة يتضمَن ستًّا وعشرين مادّة، وأنّ غايتها "السعي للقضاء على هذا المظهر الجديد من الاستعمار في السياسة الدوليّة". المكشوف، ٣: ١٠٤، ٤.

[٦] عندما سقطت الدولتان الألمانيّة والإيطاليّة، وبالتالي انهار معهما النظام النازيّ والنظام الفاشستيّ، لم يَعُدْ من مبرِّر لاستمرار تلك الجمعيّة لمكافحة هذين النظامين. فتحَّولت إلى جمعيّة صداقة مع الاتّحاد السوفياتيّ. وكان من الطبيعيّ أن تحظى هذه الجمعيّة الجديدة بعطف السلطات المحلّيّة الفرنسيّة والحليفة. راجع جورج حنّا، "عمر فاخوري مجرم"، مجلّة الطريق، ٨: ٩، ٢٢ (أيلول ١٩٤٩).



ومباشر[١]. وهو الذي أعطى مجلّة الطريق اسمها[٢]، وشارك في تحريرها مع جماعة من الرفاق أمثال أنطون ثابت، ورئيف خوري، وقدري قلعجي، وكامل عيّاد، وغيرهم.

الحزب الشيوعيّ وعمر

لقد سعى الحزبُ الشيوعيّ إلى عمر فاخوري، ولم يسعَ عمر إلى الحزب. هذا ما يؤكّده في "الحقيقة اللبنانيّة" حيث يقول: "في صيف ١٩٤٠ كنتُ... أستقبلُ في منزلي، سرًّا... جريدة... ما كان أعجلني عهد ذاك إلى قراءة صفحاتها الحرام، تأتيني أعدادها كالموادّ الخطرة المهربَّة"[٣]. إذًا، كانت تلك الصحيفة، وهي صوت الشعب[٤]، تأتيه إلى المنزل، ومن خلال صفحاتها تعرَّف إلى الحزب الشيوعيّ ونشاطه.

أمّا قضيّة انتمائه إلى الحزب فقد أُثيرتْ حولها التساؤلات. وذكرَ لي شقيقه وجيه أنّ عمر لم ينتمِ رسميًّا إلى الحزب. غير أنّه كان من المناصرين. كذلك أكّد لي الأستاذ قَدري قلعجي، وأضاف أنّه بالرغم من مناصرته للحزب فإنّه لم يلتزم بمواقفه. ويُثْبِتُ هذا القول ما ذكره خالد بكداش في إحدى مقالاته من أنّه عادَ مرّة عمر فاخوري في مرضٍ أصابه، وقال له بشيء من الظرف: إنّ الحزب الشيوعيّ اتّخذ قرارًا بضرورة تغلُّبِ عمر على المرض. فأجابه عمر بسخرية تنمّ عن حقيقة جازمة: "إنّكم لم تعطوني بطاقة انتساب للحزب، فلستُ مجبرًا على التقيّد بقراركم. ولكنّني مناضل غير حزبيّ... ولهذا سأطيع القرار وسأحاول تنفيذه"[٥].

لكنّ الشيوعيّين أرادوا تضخيم شيوعيّة عمر فأحاطوه بعطفهم ورعايتهم، ساعين إلى جعله رسميًّا في صفوفهم مفكّرًا مسلمًا لبنانيًّا، فضلًا عن المسيحيّين المنتمين كأنطون ثابت، وجورج حنّا، ورئيف خوري. فالحركة الشيوعيّة بدأت في أوساط غير عربيّة كالأرمن والأكراد، ثمّ انضمّ إليهم المسيحيّون. فراح الشيوعيّون يبحثون عن مفكِّرين مسلمين ليضمّوهم إلى صفوفهم[٦].

غير أنّ عُمَر الأديب لم يكن ليوحي بعُمَر الشيوعيّ. هذا ما جاء على لسان المستشرق بول كراوس الذي كان يعجب بذكاء الرجل وعبقريّته. فقد زاره في أحد الأيّام من عام ١٩٤٣، وعند انتهاء زيارته قال كراوس لصديقه رودنسن: "أتعلم أنّ هذا الرجل شيوعيّ؟ شيء عجيب والله"[٧].

---

[١] ثابت، أنطون، "أنا لم اكتشف عمر فاخوري". الطريق، ٩: ٤ و٥، ٢١ (نيسان وأيّار ١٩٥٠).

[٢] ثابت، أنطون، "المقابلة الأخيرة بين عمر فاخوري وخليل مطران"، الطريق،٨: ٨، ٤.

[٣] فاخوري عمر، **الحقيقة اللبنانيّة**، منشورات دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٤٤، ص ٣٢-٣٣.

[٤] المرجع نفسه، ص ٣٥.

[٥] بكداش، خالد، "علم قائم بذاته"، الطريق، ٥: ٩ و١٠، ٧.

[٦] من حديث مع قدري قلعجي بتاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٧٠. والأستاذ قلعجي من الذين رافقوا نشأة الحركة الحزبيّة الشيوعيّة آنذاك.

[٧] رودنسن، "عن مجلّة الطريق وعمر فاخوري"، الطريق، ٨: ٩، ٣٠ (أيلول ١٩٤٩) نقلًا عن مجلّة "الفكر" الباريسيّة.

في ذلك العام خاض عمر المعركة الانتخابيّة في بيروت منفردًا ضدّ عبدالله اليافي، وموسى فريج. فأيّده الشيوعيّون، وخاضوا المعركة باسمه[١]. وانتخبه الأرمن وخاصّة الشيوعيّون بينهم[٢]. غير أنّ بيانات عمر الانتخابيّة، بالرغم ممّا تضمّنته من دعوة تقدميّة إصلاحية، لم تأتِ مطلقًا على ذكر الحزب الشيوعيّ أو المبادئ العقاديّة الماركسيّة.

نشاطات أُخَر

انضمّ عمر عام ١٩٤١ إلى مصلحة الترجمة والنشر التابعة للدوائر العربيّة في المفوضيّة الفرنسيّة[٣]. وكان عمله يقتصر على كتابة المقالات لإذاعتها في راديو الشرق، ونشرها في الصحف. وبعد عام ١٩٤١ انصرف عمليًّا عن الدوائر العقاريّة إلى مصلحة الترجمة والنشر بالرغم من استمرار راتبه الأوّل الذي أُضيف إليه راتبه الجديد[٤]. وبعد مدّة عُيِّنَ مديرًا لقسم الإذاعة العربيّة في راديو الشرق[٥]. وأصبح عمله مقتصرًا على مراقبة الأحاديث التي تُلْقَى في الإذاعة وتصفيتها من الآراء التي لا توافق السلطة المنتدَبة[٦].

وبالإضافة إلى عمله هذا كان عمر يدرِّس، في مدرسة الآداب العليا ببيروت[٧]، النقدَ الأدبيَّ إلى جانب الترجمة. كما كان عضوًا في لجنة المنهاج للتعليم الابتدائيّ، وعضوًا دائمًا في لجنة الباكالوريا اللبنانيّة. وقد استمرّ في عمله في الإذاعة ومدرسة الآداب حتّى عام ١٩٤٥[٨].

ولمجلّة المكشوف دور في حياة عمر الثقافيّة. فقد كان يلتقي في مكاتبها بعدد من الأدباء كالياس أبي شبكة، وفؤاد افرام البستاني، وبطرس البستاني، وخليل تقيّ الدين، ويوسف غصوب، وسليم حيدر، وصلاح لبكي، وغيرهم. وكتب للمكشوف عددًا من المقالات الأدبيّة. واشترك في لجانها التحكيميّة للمباراة الأدبيّة السنويّة[٩]. أمّا صاحب المكشوف الشيخ فؤاد حبيش فهو الذي ألحَّ على عمر لنشر كتابَيه: الباب المرصود، والفصول الأربعة .

ومن نشاطاته الأدبيّة أيضًا اشتراكه في "حلقات الصداقة اللبنانيّة" التي أَنشأها شارل قرم عام ١٩٣٥-١٩٣٦، واستمرّت حتّى الحرب وأثناءها. وكان عمر من الأعضاء المواظبين على حضور جلساتها ومناقشاتها[١٠].

---

[١] ذكر لي الأستاذ صلاح اللبابيدي بتاريخ ٤ كانون الثاني ١٩٧٠، وهو رفيق عمر، أنّ صاحب "حجز الزاوية" لم يكن شيوعيًّا عقائديًّا ولكنّه اتّجه إلى الشيوعيّين ليكسب قاعدتهم الانتخابيّة بعدما خاض المعركة منفردًا، ولم يوفَّق للدخول في إحدى اللائحتين المتنافستين آنذاك.

[٢] من حديث مع زوجة عمر بتاريخ ٢ كانون الأوّل ١٩٦٩.

[٣] عام ١٩٣٨ قرَّرت المفوضيّة الفرنسيّة العليا إنشاء الدوائر العربيّة. وكانت هذه الدوائر تضمّ: قسم الإذاعة، مصلحة السينما، مصلحة المطبوعات، مصلحة الترجمة والنشر. وكان ألبير أديب مديرًا للإذاعة بين ١٩٣٨ و١٩٤١. ثمّ أصبح مدير الدوائر العربيّة بما فيها الإذاعة من ١٩٤١ حتّى ١٩٤٣. وقد انضّم إلى مصلحة الترجمة والنشر، فضلًا عن عمر فاخوري، كلّ من الياس أبو شبكة ورئيف خوري ومحمّد النقّاش وأمين الغريب وميشال أسمر وكريم عزقول.(من مقابلة مع ألبير أديب بتاريخ ٨ كانون الأوّل ١٩٦٩).

[٤] من مقابلة مع ألبير اديب بالتاريخ نفسه.

[٥] ذكر لي شقيقه وجيه، بتاريخ ٢١ شرين الثاني ١٩٦٩، أنّ عمر رُقِّيَ إلى هذا المنصب نحو عام ١٩٤٤. أمّا مكتبه فقد كان في طلعة زقاق البلاط، خلف وزارة الداخليّة اليوم.

[٦] فرّوخ، عمر، "المنهاج الجديد في الأدب العربيّ"، (دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى ١٩٦٩) ص ٣٧٦.

[٧] كانت الكلّيّة بإشراف السيّد بونور مستشار المعارف عهد الانتداب

[٨] خوري، غزير، الأطروحة، ص١٣.

[٩] راجع المكشوف، ٢: ٦٣، ١٢(٢٦ آب ١٩٣٦) و٤: ١٦٠، ٤(٨ آب ١٩٣٨).

[١٠] من مقابلة مع فؤاد افرام البستاني بتاريخ ٢١ شباط ١٩٧٠

أمّا قصّة السفارة فقد حلم بها عمر طويلًا دون أن يحظى بتحقيق حلمه. فأسقط موسكو نهائيًّا من ذهنه بعد أن تمنّى زيارتها، والتعرّف إليها، وإلى النظام الشيوعيّ عن كثب، وإلى كبار الأدباء، ورجال الفكر الروس[١].

مرضه وموته

نعلم من سجلاّت الدوائر العقاريّة أنّ عمر مُنِحَ إجازة مَرَضِيَّة في العاشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٥، ثمّ مُدِّدَتْ هذه لإجازة في ٢١ كانون الأوّل من ذلك العام، ولمدّة أربعة وسبعين يومًا. وأخيرًا صُرِفَ من الخدمة في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦ بناء على تقرير لجنة طبّيّة. فلقد أُصيب عمر بداء اليرقان الذي أنهك قواه، وزاد في رقّة جسمه النحيل، ثمّ التهبت معه المرارة، فدخل مستشفى الجامعة الأميركيّة في بيروت، وأُجْرِيَتْ له عمليّة جراحيّة لاستئصال المرارة في كانون الأوّل عام ١٩٤٥[٢]. ويبدو أنّ تلك العمليّة لم تنجح تمامًا. فعاد عمر إلى منزله عليلًا لا يقوى على العمل. غير أنّه بَقِيَ عريضَ الأمل، كبيرَ الرجاء.

مضت أربعة أشهر وهو طريح الفراش. وساءت حاله إذ أصابه جفافٌ في الكبد، ودُمَّلٌ في البانكرياس[٣]. فدخل مستشفى الدكتور محمّد خالد[٤] وهو في حالة خطرة، وأُجْرِيَتْ له العمليّة الجراحيّة الثانية. ولكنّ جسمه الضعيف لم يتمكّن من المقاومة طويلًا. فبعد أسبوع تعرَّض لنزف دمويّ أودى بحياته صباح يوم الأربعاء في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٤٦، ومات عن إحدى وخمسين سنة[٥].

---

[١] عندما نال لبنان استقلاله وبدأت الدولة تبعث سفراءها إلى الخارج، رُشِّحَ لمنصب سفير لبنان في موسكو أربعةٌ، كان أحدهم عمر فاخوري. أمّا الثلاثة الآخرون فكانوا: كمال جنبلاط، وجبران التويني، وخليل تقيّ الدين. (من مقابلة مع خليل تقيّ الدين بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٧٠). وافقَ عبد الحميد كرامي، رئيس مجلس الوزراء يومذاك، وهنري فرعون وزير الخارجيّة، على انتداب عمر سفيرًا إلى موسكو. ولكنّ رئيس الجمهوريّة الشيخ بشارة الخوري اختار خليل تقيّ الدين لهذا المنصب. وهكذا كان. (من مقابلة مع وجيه شقيق عمر بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩).

[٢] من حديث مع شقيقه وجيه بتاريخ ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٩.

[٣] جبر، جميل، "زوجة عمر فاخوري تتحدّث لأوّل مرّة عنه" مجلّة الحكمة، ٦: ٧، ٧ و٨ (أيار ١٩٥٧).

[٤] من حديث مع شقيقه وجيه بالتاريخ نفسه.

[٥] أخطأ صلاح اللبابيدي حين ذَكَرَ أنّ عمر فارقنا في السنة الثالثة والخمسين من عمره، وذلك في مقاله "ذكرى عمر الفاخوري" في كتاب "الثمالات" (دار الثقافة، بيروت، لا ت.) ص ١٧٨. وكذلك أخطأت جريدة الحياة يوم نَعَتْ عمر في عددها الصادر في ٢٦ نيسا ١٩٤٦، ذاكرة أنّه توفيّ عن ثلاثة وخمسين عامًا. وإذا قابلنا تاريخ مولده بتاريخ وفاته يتبيّن لنا أنّه توفيّ عن خمسين سنة وسبعة أشهر وتسعة أيّام بالضبط.